حوار مع الحياة

د. رانيا فرح

ذات مساء قبيل الغروب، وأنا أتمشى على شاطئ البحر، أرقبُ تلك الكرة النارية تسرع الإنزلاق نحو الأفق، فبدا لي أن لهيب الشوق الى العودة يزيد من حرارتها، فتتحول من صفراء الى حمراء قرمزية... اللهيب يستعرّ كلما إقتربت الشمس من موعد الرحيل، فتستّل رويداً الى البحر، لتطفئ قيظها ببرودة مياهه... لونها القرمزي يأخذ بالتلاشي، وتصطبغ الدنيا بلون البرودة ؟ لون الزرقة الأرجوانية. وأستشعر أن ثمة كلام ينبثق من مكان ما. أنصت ... فأسمع حوار الحياة مع كائن آخر، ربما مع أحد أبنائها الفلاسفة المخضرمين:

الحياة: أُنظر الى أبنائي في الإنسانية. كلهم أبناء الحياة الواحدة والمساواة ميزتهم.

الفيلسوف: لكنني أرى الواحد يختلف عن الآخر. فأين المساواة التي تتحدثين عنها؟

الحياة: ليس من إختلاف بين أبنائي. فالزهور في الحقول والرياض كثيرة. كل زهرة تختلف عن الأخرى بلونها وشذاها، لكنها كلها زهور، تسقي وتتغذى من الطبيعة، تنبت وتنمو وتعطر الأجواء وتزيّن الأرض. والرياض لا ترتدي حلّة جمالها إلا بإختلاف ألوان الزهور وأريجها.

تصور روضة لا تحوي سوى نوع واحد من الزهور. ألا ترى بأن جمالها يصبح عادياً، مُملاً، باهتاً، فلا يدعى جمالاً بل هو أقرب الى الرتابة؟

الفيلسوف: لكن ثمة إنسان غني وآخر فقير. واحد مثقف وآخر جاهل. شخص واعٍ وآخر لا واعٍ. فهل هكذا تكون المساواة؟

الحياة: لستُ أنا من يُميّز زهرة عن أخرى. ولستُ أنا من يقرّر للزهرة لونها أو عطرها، بل هي التي تختار. أنا أقدّم لها التربة وعناصر الحياة (المياه والهواء ونور الشمس) ولها أن تختار من عناصر الحياة ما يناسبها، وما تستسيغه من ألوان وأريج.

العناصر الطبيعية واحدة في شتى البقاع، لكن الزهور هي التي تختار ثوبها التي يروق لها. فحرية الإختيار حق مقدس، وُهب لي، ولا أستطيع إلا أن أهبه لمخلوقاتي. فهو الحق والحقيقة، بل هو إستمرارية وجودي.

الفيلسوف: وما قولك بإنسان يولد ليموت. وآخر يموت ليولد؟ أليس الموت أسراً لحرية الإختيار؟

الحياة: وهل ثمة من يرفض التجدد المستمر؟هل هناك من يختار الجمود بدلاً من التطور؟ درب التطور يمرّ ببوابة التجدد – الموت.

الزهور إختارت الحياة، إختارت أن تكون زهوراً، إختارت أن تنبت وتنمو وتعطر الأجواء، وتلوّن الطبيعة، إختارت أن تتجدد وأن تتطور وأن تستمر الى الأبد. هي، بملء إرادتها إختارت الخلود. فهل لي أن أرفض أو أنكر إختيارها هذا؟ حرية الإختيار تقدّس بها كل موجود، ولا بد من إحترام حرية الإختيار.

أنت تسمي ذلك الشيء موتاً. أما أنا فادعوه « التجدد». ومن يختار التجدد الأبدي فالخلود مصيره.

الفيلسوف: وأنت من أنت؟

الحياة: أنا الحياة. أنا النسمة الأولى التي زفرها خالق الأكوان في البدء، وقدّمها لكل من إختار أن يكون. وها أنا، منذ البدء، وسأبقى حتى النهاية... أقدّم من تلك النسمة الى كل من سيختار أن يكون.

الفيلسوف: وأنا ... من أنا؟

الحياة: أنتَ... أنتَ ذلك الفكر المتسائل في كل كائن، في كل من يختار أن يكون... لكن لا تدع إرادتك تردعه عن إختياره. لأن حرية الإختيار دائماً هي الأقوى. حرية الإختيار ستبتلعك وتحويك، كما إبتلعتك أنا وإحتويتك حين إخترتُ أن أكون الحياة!!!

صمتت الحياة، وصمت الفيلسوف... صمت الحوار بعد أن كانت الشمس قد لملمت آخر وجود لها من ذلك المكان.